بسم الله الرحمن الرحيم

٢٨ – سورة القصص

سميت به لاشتمالها على قوله تعالى[١] (فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء ـ أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتمالها على مالايشتمل عليه غيرها من أنباءموسى، أفاده المهايميّ .

والسورة مكية كلها . وقيل إلّامن قوله تعالى[٢](ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ)إلىقوله (ٱلْجَـٰهِلِينَ) فقد أخرج الطبرانيّ عن ابن عباس أنها نزلت هى وآخر الحديد فى أصحاب النجاشيّ الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحُد .

وقوله تعالى[٣] (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ) الآية لما روى من نزولها بالجُحْفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهى ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٢٥] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٢ـ٥٥] .
(٣) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (طسٓمٓ)

[٢] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

[٣] (نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٤] (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ)

«طسٓمٓ» تقدم الكلام على هذه الحروف غير مامرة «تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة ملتبسة بالحق . كما قال تعالى[1] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) ثم استأنف ما يجرى مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى تكبر وتجاوز الحد فى الطغيان ، فى أرض مصر « وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا » أى فرقا وأصنافا فى استخدامه وطاعته « يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ » وهم بنو إسرائيل « يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ » وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلا لعددهم ، كيلا يكثروا فينازعوه الملك « إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى المتمكنين فى الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذى جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

---

(١) [١٢ / يوسف / ٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ)

[٦] (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ)

[٧] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ، إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٨] (فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ)

« وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ » أى نتفضل « عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً » أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ » أى : لملك عدوّهم . كما قال تعالى[1] (وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ) إلى قوله (يَعْرِشُونَ) « وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ » أى بالتصرف فيها تصرف الملوك « وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم » أى من أولئك المستضعفين « مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم وذهاب ملكهم، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطغيانهم « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ » أى إثر ولادته فى تلك الشدّة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين بأيديهم الشفار المرهفة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ » أى فى البحر ، وهو النيل « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَٱلْتَقَطَهُۥٓ

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » أى فى هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة. أبرز مدخولها فى معرض العلة، لالتقاطهم. تشبيهاله فى الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ » أى مجرمين فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم ، ومَنْ هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[١٠] (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ، إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[١١] (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ » أى لفرعون ، حين أخرجته من التابوت « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بما سيكون « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا » أى خاليا من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه فى يد فرعون « إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ » أى بأمره وقصته، وأنه ولدها « لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى لولا أن ألهمناها الصبر . شبه بربط الشىء المنفلت ليقرّ ويطمئن . ومعنى (من المؤمنين) أى المصدقين بوعد الله . وهو قوله[1] (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ) .

قال الزمخشرىّ : ويجوز، وأصبح فؤادها فارغا من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبنّاه . إن كادت لتبدى بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أنّا

(١) [٢٨ / القصص / ٧] .

طامنا قلبها وسكنا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله ، لا بتبنّى فرعون وتعطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ » أى اتّبعى أثره لتتالى خبره « فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ » بضم النون وسكونها . أى : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى أنها تتعرف حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ)

[١٣] (فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٤] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)

[١٥] (وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ، فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ، إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

[١٦] (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)

[١٧] (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ » أى من قبل قصّها أثره . و (المراضع) جمع مرضع

بضم الميم وكسر الضاد . وهى المرأة التى ترضع . وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء . أو جمع (مرضع) بفتح الميم مصدر ميمىّ ، جمع لتعدد موادّه . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدى «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ» أى فى رضاعه وتربيته «فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا» أى برؤيته «وَلَا تَحْزَنَ» أى بفراقه «وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ » أى كمال قوته ، «وَٱسْتَوَىٰٓ » أى اعتدل مزاجه «ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ» أى فى أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ماقدّر له من الرسالة، بقوله سبحانه « وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ » أى مصر آتياً من قصر فرعون « عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا » قيل وقت القيلولة. وقيل بين العشاءين «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ» أى يتنازعان «هَٰذَا» أى أى الواحد «مِن شِيعَتِهِۦ » أى ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل «وَهَٰذَا» أى الآخر «مِنْ عَدُوِّهِۦ » أى ممن خالفه فى دينه وهم القبط « فَٱسْتَغَٰثَهُ» أى سأله الإغاثة «ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ » لكونه مظلوماً «عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ » لكونه ظالماً. وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين «فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ» أى ضربه بجُمع كفِّه «فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» أى فقتله « قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه، من قتله . وسماه ظلماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه « قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى» أى بقتله « فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ» يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف. أى أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة، لأتوبنّ ولا أظاهر المجرمين. وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب! اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة. فلن أكون ، إن عصمتنى ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرتهم، إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثير سواده ، وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلىّ المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له . قاله الزمخشرىّ .

قال الناصر: لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده.

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة، أو برى لهم قلماً ، فيجعلون فى تابوت من حديد ويلقى بهم فى النار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُو بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُو ، قَالَ لَهُو مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ)

[١٩] (فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ)

[٢٠] (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ)

[٢١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

[٢٢] (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ)

[٢٣] (وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

« فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ » أى الاستقادة أو الأجناد . « فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُو بِٱلْأَمْسِ » أى استعانه فقتل من أجله منازعه القبطى « يَسْتَصْرِخُهُو » أى يستغيثه من قبطى آخر « قَالَ لَهُو مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرّك إليهم مالا تحمد عقباه « فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا » أى لموسى وللإسرائيلىّ ، وهو القبطىّ « قَالَ » أى ذلك العدوّ وهو القبطىّ ، لا الإسرائيلىّ كما وهم « يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزمخشرىّ : الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى أحسن . « وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ » أى يسرع لفرط حبه لموسى « قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ » أى يتشاورون بسببك « لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ » أى من حدّ مملكتهم « إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ » أى لحوق الطالبين « قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه « تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ » أى فلا يلحقنى فيه الطالبون « وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيهم « وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ » أى تمنعان مواشيهما عن المـاء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقى « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى ما شأنكما فى الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ » أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن المـاء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقى . أى مالنا رجل يقوم بذلك إلا هو ، وقد أضعفه الكبر ، فاضطرنا الحال إلى ما ترى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[٢٥] (فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« فَسَقَىٰ لَهُمَا » أى فسقى غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ » أى الذى كان هناك ، من شدة الحرّ « فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى محتاج. والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام. وعلى الأخير حمله الأكثرون بمعونة المقام « فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ » أى أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى بالخروج عن حدّ ولايتهم ، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ)

[٢٧] (قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ)

[٢٨] (قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق بذلك « إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ » أى خير من أردت جعله أجيراً ، القوىّ على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشرىّ : وقولها (إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ) كلام حكيم جامع لا يزاد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة، أن تقول : استأجره لقوّته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجمل فى مدح النساء للرجال، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة. وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوىّ . ففى مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أمينا : يستعين به على ما كان بصدده رضى الله عنه . انتهى . «قَالَ إِنِّى أُرِيدُ» أى لقوتك وأمانتك، ما يقوّى المودة ويجذب القلوب «أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ» أى على أن تكون أجيرى لرعى المواشى بأجرة على ابنتى ، هى مهرها عليك ، ثمانى سنين « فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإيجابه « سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ» أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد « قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ » أى ذاك الذى عاهدتنى عليه ، لانخرج عنه جميعا « أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ» أى أتممت « فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ» أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٩] (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٣٠] (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٣١] (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٰمِنِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أى أتم « مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ » أى من الطريق ، من ضوئها ، أو ممن عندها « أَوْ جَذْوَةٍ » مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أى عود فيه شىء « مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تستدفئون « فَلَمَّآ أَتَىٰهَا » أى قرب منها « نُودِىَ مِن شَٰطِئِ » أى جانب « ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ » أى المبارك . يقال : يمن فهو ميمون وأيمن . وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد . لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء فى غير آية توصيف الوادى بالمقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد . وإن أدهش التفنن فى التعبير عنه ببديع تلك المبانى « فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ » أى التى بورك مكانها بالتجلى الإلهى « مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ » أى تتحرك « كَأَنَّهَا جَآنٌّ » أى حية صغيرة ، فى سرعة الحركة « وَلَّىٰ مُدْبِرًا » أى أعرض بوجهه عنها ، جاعلاً ظهره إليها « وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع « يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٰمِنِينَ » أى من المخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ، فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ)

« ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ » أي أدخلها فيه « تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ » أي عيب « وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أي يدك « مِنَ ٱلرَّهْبِ » أي الخوف. قرئ بفتحتين، وضمتين، وفتح وسكون ، وضم وسكون . قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا. وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء، أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه مايجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك، على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه مايجد أو يخف إن شاء الله تعالى . وبه الثقة. « فَذَٰنِكَ » إشارة إلى العصا واليد « بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا » أي فيكون أحسن بياناً . ولا يتحمل ذلك مالم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا » أي معيناً « يُصَدِّقُنِىٓ » أي لنشاط قلبي « إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ » أي يتفقوا على تكذيبي المؤدي إلى أنواع الأذيات .

قال الزمخشري : فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله (وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك. لا لقوله صدقت. فإن سحبان وباقلا يستويان فيه. أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه . فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه ، إسناداً مجازيا . انتهى . « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أي سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب: والشد التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشتد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية . شبّه حال موسى فى تقويته بأخيه عليهما السلام ، بحال اليد فى تقويتها بيد شديدة . « وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا » أى غلبة ومهابة فى قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا » أى بايذاء ، فضلا عن القتل « بِآيَاتِنَا » متعلق بمحذوف أى اذهبا بآياتنا. أو بـ(نجعل) أى نسلطكما بها أو بمعنى (لايصلون) أى تمتنعون منهم بها . أوقسم جوابه (لايصلون) مقدر . أو صلة لـ(الغالبون) فى قوله « أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » وتقدمه ، إما للفاصلة أو للحصر . أى الغالبون عليهم ، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ)

[٣٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ، إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)

[٣٨] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ)

«فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تفتريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلهاً يرسل الرسل

بالآيات « فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ » أى كائناً فى أيامهم. قال الشهاب: وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم. أولأنهم لم يؤمنوا به أيضاً «وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ» قال المهايمى: معناه: كفى دليلا على كونها آيات، أنها خوارق لم يسبق لها نظير. مع أن ما جئت به هدى. والساحر لا يدعو فى العموم إلى هدى . فإن لم تعترفوا بكونه هدى، فربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ويعلم ذلك بالعاقبة، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة. لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار . وهى العاقبة المحمودة . والمراد بـ(الدار) الدنيا . وعاقبتها وعقباها: أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان . وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة ، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال « إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ » أى بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولًا استدراجاً، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة . وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم . وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة . ونهاية أعدائه وضيعة « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى» هذا حكاية لتمرده وعتوّه وطغيانه فى تفوهه بتلك العظيمة . كما واجه موسى عليه السلام بها فى قوله[1] (لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) وكما قال تعالى[2] عنه (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ* فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر « فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ » أى ناراً ، فاتخذ منه آجرًّا .

قال الزمخشرى: ولم يقل (اطبخ لى الآجرّ واتخذه)لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته ، وأشبه بكلام الجبابرة . وهامان وزيره ومدبّر رعيته « فَٱجْعَل لِّى » أى من الآجرّ « صَرْحًا » أى قصراً رفيعاً إلى السماء « لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ »

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٣ و ٢٦] .

يعنى العلىّ الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية، والعلوّ لبارى الأرض والسموات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ)

[٤٢] (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ)

[٤٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَاسْتَكْبَرَ هُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه، وادعاء العلم الكلىّ لنفسه مع جهله به « وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » أى بل بالفساد وردّ الحق، والصدّ عن سبيل الله « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الياء وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً » أى يلعنهم كل مؤمن يسمعهم « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ » أى من المطرودين، المبعدين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ » أى أنواراً للقلوب « وَهُدًى » أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها « وَرَحْمَةً » أى بالإرشاد إلى العمل الصالح « لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى فيتعظون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيا من علام الغيوب، ببيان أنه ما فصّل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ)

[٤٥] (وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٤٦] (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ » أى الوادى الغربىّ الذى كوشف فيه موسى عن المناجاة « إِذْ قَضَيْنَآ »أى قدرنا وأنهينا « إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ » أى أمر الإرسال والإنباء «وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ * وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا »أى بين زمانك وزمان موسى «فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ» أى أمد انقطاع الوحى، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغى والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور « وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا »أى مقيما «فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أى لك ، وموحين إليك تلك الآيات . أى ما كان الإنباء بها إلا وحيا مصدره الرسالة « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » أى وقت ندائنا موسى « وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره، لرحمةٍ عظيمة كائنة منّا لك وللناس « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ» أى من نذير فى زمان الفترة ، بينك وبين عيسى « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بإنذارك.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٤٨] (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ، قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ)

«وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ» أى عقوبة «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أى من الكفر والفساد «فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ» أى بها. وجواب (لولا) الأولى محذوف، ثقة بدلالة الحال عليه. أى ما أرسلناك. لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم .

قال الزمخشرىّ : ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدى، وتقديم الأيدى، وإن كان من أعمال القلوب. وهذا من الاتساع فى الكلام، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر، وتغليب الأكثر على الأقل « فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ » أى من قلب العصا حية، وفلق البحر، وغيرهما من الآيات. تعنتاً وعناداً، كما قالوا[1] (لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ) وما أشبه ذلك. وقوله « أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ » رد عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أى أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومَنْ مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أوتى موسى من الكتاب «قَالُوا۟» أى فى موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) « تَظَٰهَرَا » أى تعاونا. وقرئ « سِحْرَانِ » أى ذوا سحرين؛ أوجعلوهما

(١) [١١ / هود / ١٢] .

سحرين مبالغة « وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّ كَـٰفِرُونَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبيّ صلوات الله عليه ، هى الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التى كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنسانىّ كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لابد له فى هذا الطور من معلّم ومرشد ، كما فى الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم . فكانت عمدته ﷺ فى الاستدلال على نبوّته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذى يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما يبديه من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا فى مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

[٥٠] (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ)

[٥٥] (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تقترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين. والذكرى التى تزع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنين ، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعْهُ » أى ولا أعاندكم مثل ما تعاندوننى « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلقان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود : ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بيّن الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام . انتهى .

أى لا للشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدلّ : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم، نوع تهكم بهم « فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ » أى الزائغة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ » الاستفهام إنكارىّ للنفى .أى لا أحد أضل منه. كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

قال الرازىّ: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لابد من الحجة والاستدلال. انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى أنزلنا عليهم القرآن متواصلا، بعضه إثر بعض، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ومواعظ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ (وصّلنا) بالتشديد والتخفيف « ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ » أى القرآن « هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ » وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم «وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ» أى القرآن «قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ »أى من قبل نزوله«مُسْلِمِينَ» أى منقادين له، لما عندنا من المبشّرات به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك «أُوْلَٰٓئِكَ» أى الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ » يعنى مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُواْ » أى بصبرهم وثباتهم على الإيمانين . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم «وَيَدْرَءُونَ» أى يدفعون« بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ » أى بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » أى للبؤساء والفقراء ، وفى سبيل البرّ والخير ، فراراً عن وصمة الشحّ ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ » أى من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُواْ عَنْهُ » أى تكريماً للنفس عن ملابسة الأدنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُواْ » أى لهم « لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ » أى بطريق التوديع والمتاركة ؛ وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ » أى لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازىّ : قال قوم : نسخ ذلك بالأمر بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجبا .

تنبيه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت فى سبعين من القسيسين . بعثهم النجاشىّ .

فلما قدموا على النبيّ ﷺ قرأ عليهم[١] (يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ) حتى ختمها . فجعلوا يبكون وأسلموا .

وقال محمد بن إسحق فى (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه فى المسجد . فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه . ورجال من قريش فى أنديتهم . حول الكعبة . فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش . فقالوا لهم : خيّبكم الله من ركب . بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركبا أحمق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قال : ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهرىّ عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن فى النجاشىّ وأصحابه رضى الله عنهم . والآيات اللاتى فى سورة المائدة[٢] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا) إلى قوله[٣] (فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ) .

---

(١) [٣٦ / يس / ١ و ٢] . (٢) [٥ / المائد / ٨٢] .
(٣) [٥ [المائدة / ٨٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ)

[٥٧] (وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ، أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ)

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لاتقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » أى أن يهديه فيدخله فى الإسلام بعنايته « وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارى[1] فى (صحيحه) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص ، ١ ـ باب قوله إنك لاتهدى من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنّ لك مالم أُنْهَ عنك. فأنزل الله[1] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ) وأنزل الله فى أبى طالب، فقال لرسول الله ﷺ[2] (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ) .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم[3] فى صحيحه والترمذىّ[4] أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم ، عن أبى هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا. وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبىّ وقتادة: إنها نزلت فى أبى طالب حين عرض عليه الإسلام. انتهى.

وقال ابن حجر فى (فتح البارى) : لم تختلف النقلة فى أنها نزلت فى أبى طالب. انتهى.

وقدمنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية فى كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

ثم ذكر تعالى من تعنتهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائىّ، بقوله سبحانه «وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ» أى نخالف العرب «نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ» أى مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا » أى : ألم نعصمهم من عدوّهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمن ، لحرمة البيت الحرام، الذى تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا » أى كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

(٣) أخرجه فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ (طبعتنا)

(٤) أخرجه فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص

لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ » أى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف (قليلا) المستثنى ، إما (زمان) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارّة يوما أو بعض يوم . وإما (مكان) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندثر الباقى . أو (مصدر) أى سكنا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ)

[٦٠] (وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٦١] (أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ)

[٦٢] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا» أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعيا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد «وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا» أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ » أى متاعا وزينة فى نفسه ، خلوّه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰٓ » لأنه أبدىّ لا يزول «أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ » أى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ (المحضر) فى القرآن فى المعذَّب. وإليه أشار الزمخشرىّ، وصرح به فى البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ، مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

[٦٤] (وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ)

[٦٥] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ)

[٦٦] (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ)

[٦٧] (فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ)

[٦٨] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ » أى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم. والمراد بهم ، رؤساء الضلال، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ »أى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون مايقولون بمحضر منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أى أضللناهم بالوسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار مايفنى على مايبقى « تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ » أى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم ومما اختاروه « مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أى بل كانوا يعبدون

أهواءهم وشهواتهم «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعُمْى عليهم لا تهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب: ففيه استعارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدّى بـ (على) . ففيه أنواع من البلاغة : الاستعارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أو ما يعمّها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به « فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله فى العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم مختوما على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحقٌ للمصرّ « فَأَمَّا مَنْ تَابَ » أى من الشرك «وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ » أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه. كأنه قال: فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشرىّ « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » أى بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

قال الزمخشرىّ : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى المتخير . كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراده بالألوهية وحده . ولذا قال « سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئا ولا تختار .

تنبيه :

للإمام ابن القيّم فى مقدمة (زاد المعاد) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات. قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ) وليس المراد ههنا بالاختيار، الإرادة التى يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل فى قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . وداخل فى قوله تعالى (مَا يَشَآءُ) فإن المشيئة هى الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ) ويكون (ما كان لهم الخيرة) نفيا . أى ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده. فكأنه هو المتفرد بالخلق، فهو المتفرد بالاختيار منه. فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه فى ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) فى قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ) موصولة وهى مفعول (يختار) أى ويختار الذى لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها ـ أن الصلة حينئذ تخلو من العائد. لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذى كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفا ، ويكون التقدير : ويختار الذى كان لهم الخيرة فيه . أى ويختار الأمر الذى كان لهم الخيرة فى اختياره. قيل: هذا يفسد من وجه آخر. وهو أن هذا ليس من المواضع التى يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجرورا إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى (يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءنى الذى مررت، ورأيت الذى رغبت ، ونحوه . الثانى ـ أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهـــذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الـكلام على هذا التقدير . الثالث ـ أن الله سبحانه يحكى عن الـكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبيِّن تفرده بالاختيار ، كما قال تعالى[١] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ،وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فأنـكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال[٢] ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى الله أعلم بالمحل الذى يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة ، دون غيره .

الرابع ـ أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإثبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمله فإنه فى غاية اللطف .

الخامس ـ إن هذا نظير قوله فى الحج[٣] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ثم قال[٤] ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .
(٣) [٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤] . (٤) [٢٢ / الحج / ٧٥و٧٦] .

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ *يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ) وهذا نظير قوله فى القصص[1] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) ونظير قوله فى الأنعام[2] (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) فأخبر فى ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالّ اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق فى هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دائراً عليه . والله أعلم .

السادس ـ إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله[3] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ* فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ* فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ *وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالا على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. وأنه الله الذى لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص ، المشهور أثره فى هذا العالم ، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله. فنشير منه إلى شىء يسير يكون منبهاً على ما وراءه، دالّاً على ما سواه . فخلق الله السموات سبعاً. فاختار العليا منها فجعلها مستقرّ المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيّه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات. ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوى

---

(١) [٢٨ / القصص / ٦٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .
(٣) [٢٨ / القصص / ٦٥ ـ ٦٨] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق مايشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها. وفى بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم . واختيار الرسل منهم واختياره أولى العزم منهم . واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمد اصلى الله عليهم وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بنى آدم. ثم اختار منهم بنى كنانة بن خزيمة. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بنى هاشم. ثم اختار من بنى هاشم، سيد ولد آدم محمدا ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها ، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها . وهى البلد الحرام . فإنه سبحانه اختاره لنبيّه ، وجعله مناسك لعباده . وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق . فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ، كاشفى رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لايسفك فيه دم، ولاتعضد به شجرة، ولاينفر له صيد ولا يختلى خلاه، ولا يلتقط لُقَطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض . فخير الأيام عند الله يوم النحر . وهو يوم الحج الأكبر كما فى (السنن) . وأفضل الشهور شهر رمضان . وعشره الأخير أفضل الليالى . وليلة القدر أفضل من ألف شهر . ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع . ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام . انتهى ملخصاً .

وقد أوسع المقال وجوّد الاستدلال. فرحمه الله ورضى عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَانَ ٱللَّهِ » أى تنزيهاً لله الذى لايزاحم اختياره اختيارٌ « وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٠] (وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأٓخِرَةِ ، وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٧١] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من الكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأٓخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ ٱلْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ » أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٧٣] (وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

[٧٥] (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[٧٦] (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ »أى فى الليل«وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ » أى فى النهار « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة، والجسمانية والروحانية، باستعمالها فيما وجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً » أى نبيًّا يشهد عليهم بما كانوا عليه. كقوله تعالى[1](فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ) «فَقُلْنَا» أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم. وظهر برهان النبيّ، كما قال تعالى«فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ » أى فى الألوهية، لا يشاركه فيها أحد « وَضَلَّ عَنْهُم » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة، والطرق المتشعبة المتفرقة «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ» أى من شاكلتهم فى الكفر والطغيان . وقوم موسى ، جماعته الذين أرسل إليهم، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

المدخرة« مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ » أى مفاتيح صناديقه. على حذف مضاف. أو الإضافة لأدنى ملابسة. وقيل خزائنه « لَتَنُوٓءُ » أى تثقل « بِٱلْعُصْبَةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال « أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح، لما فيه من إيثارها عن الآخرة، والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا، وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ)

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ)

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك، بعد الفاقة « ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب. وتجعله زادك إلى الآخرة «وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا» وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفهك «وَأَحْسِن» أى إلى الناس . أو افعل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » أى بطرق التجارة أو المكاسب «أَوَلَمْ يَعْلَمْ» أى مما سمع بالتواتر «أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ» أى الكثيرة، بحيث صارت سنة له «مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً» أى بالأموال والأتباع «وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

ٱلْمُجْرِمُونَ » أى لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ، ليعتذروا عنها. بل متى حق عليها القول بفسقهم ، أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ، ولا بنصيحة قومه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ، قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[٨٠] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ، وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ)

[٨١] (فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ)

[٨٢] (وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ، لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ)

« فَخَرَجَ » أى قارون باغيا « عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ » أى مُعْتَزًّا بالنظر فيها « قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى جريا على سنن الجبلة البشرية ، من الرغبة فى السعة واليسار « يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ » أى مما تتمنونه « لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ » أى هذه الكلمة التى فاه بها الذين أوتوا العلم . أو الجنة . أو السيرة والطريقة ، وهى الإيمان والعمل الصالح « إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ » أى على الطاعات عن الشهوات ، وعلى زمام النفس أن

تجرى فى أعقاب المزخرفات . و(ويلك) فى الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمنى، مجازا. وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ »أى المشتملة على أمواله « ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى بدفع العذاب عنه «وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ » أى بقوة نفسه وماله « وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ »أى من شق وسعيد «وَيَقْدِرُ» أى يقبض. فلا دلالة فى البسط على السعادة . ولا فى القبض على الشقاوة. بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقدْر بمحض مشيئته، لا لكرامة توجب البسط، ولا لهوان يقتضى القبض « لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا » أى بعدم إيتائه متمنانا « لَخَسَفَ بِنَا » أى كما خسف به « وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ » أى لنعمة الله، فى صرفها فى غير سبيلها. أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

فى (ويكأن) مذاهب :

الأول ـ أن (وى) كلمة برأسها . وهى اسم فعل ، معناها أعجب . أى أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما فى حيزها مجرورة بها . أى أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على (وى) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائىّ .

الثانى ـ أنه مركب من (وى) للتعجب (وكأن) للتشبيه. والمعنى: ما أشبه الأمر أن الله يبسط. أى ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقا إلى آخرٍ ، أمرَ قارون وما شوهد من قصته. والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال، أنه لتحققه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شىء . كما أشار إليه فى الكشف .

الثالث ـ قال بعضهم : (كأن) هنا للتشبيه. إلا أنه ذهب منها معناه. وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضا يناسبه الوقف على (وى) .

الرابع ـ زعم الهمدانيّ فى (الفرائد) أن مذهب سيبويه والخليل أن (وى) للتندم. و(كأنّ) للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين فى أن الله يبسط الخ .

قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .

الخامس ـ ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويلك) فخفف بحذف اللام. والعامل فى (أن) اعلم ، المقدر. والكاف على هذا ضمير فى محل جرّ. وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .

السادس ـ أن (ويك) كلمة برأسها. والكاف حرف خطاب. ويقرب هذا مما قبله. قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما ـ أن معنى الخطاب هنا بعيد. والثانى ـ أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ فى كل موضع . انتهى .

السابع ـ أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفرّاء والكسائىّ أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) فى لغة حمير . ولم يرسم فى القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة فى الموضعين. فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائىّ وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .

هذا ما يستفاد من حواشى القاضى والسمين . وعندى أنها مركبة من (وى) للتعجب و (كأن) التى للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على ذلك كتابتها فى المصاحف متصلة ، لأن الكتابة ـ كما قال ابن كثير ـ أمر وضعىّ اصطلاحىّ ، والمرجع إلى اللفظ العربىّ .

وقد اتفق اللغويون على أن (وى) كلمة تعجب. يقال (ويك) و (وى لزيد) وتدخل على (كأن) المخففة والمشددة . ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَالَتَانِى الطلاقَ أَنْ رَأَتَانِى ... قَلَّ مالى . قد جئتمانى بنُكْرِ

وىْ كأنْ من يكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

وهذا البيت مما يدل على مااستظهرته ، بلهَ الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسينا به ، بل فقناه فى الإضراب عن كثير من مرويّه ، الموقوف والضعيف الذى سوّدت به الصحف.

ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٨٤] (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ » أى غلبة وتسلطاً بسوء وتكبّر « وَلَا فَسَادًا » أى بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى « وَٱلْعَـٰقِبَةُ » أى النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أى الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشرىّ ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال[1] (وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟) فعلق الوعيد بالركون . وعن علىّ رضى الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه. فيدخل تحتها .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانىّ ههنا. وعن عمر بن عبد العزيز، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطُّمَّاع من يجعل العلوّ لفرعون، والفساد لقارون، متعلقاً بقوله[2]: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ)[3] (وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ) ويقول: من لم يكن

(١) [١١ /هود / ١١٣]. (٢) [٢٨ / القصص /٤]. (٣) [٢٨ / القصص/ ٧٧].

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) كما تدبره علىّ والفضيل وعمر رضى الله عنهم. «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) معناه : فلا يجزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتهجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامعين. ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) أى مثله .وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع ، أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها. ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعمائة . وهو معنى قوله (فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا) كذا فى الكشاف .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨٥] (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[٨٦] (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم، وصدعهم به «لَرَآدُّكَ» أى بعد الموت «إِلَىٰ مَعَادٍ» أى مرجع عظيم. وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتنوينه للتعظيم . ووجهه ـ كما فى (العناية) ـ أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فجعل معاده عظيما لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة . كما قال تعالى(١) (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى(٢) (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) وقال[1] (وَجِاْىءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة. إلى الموت. إلى الجنة أخرجت عنه من طرق. كما أسنده ابن كثير.

والذى رواه البخارىّ والنسائىّ وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرادك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبىّ ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيّا ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح ، الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبىّ ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم. ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت. وتارة بالجنة التى هى جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ » يعنى نفسه الكريمة . أى بما يستحقه من المثوبة « وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » يعنى المشركين . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق «وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ » أى ما كنت تظن ، قبل إنزال الوحى إليك ، أن الوحى ينزل عليك « إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ » أى معينا لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرمانىّ فى (الغرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرانيهم ، وأنه أمر بالهجرة .

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)

[٨٨] (وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ . لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ، لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعْلٍ كلمتك ومؤيد دينك. ولذاقال «وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ» أى إلى عبادته وحده لاشريك له «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه لايتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لى كالشرك . فلا تكن ممن يفعله. أو المراد نهى أمته، وإن كان الخطاب له ﷺ. كذا فى (العناية) .

« لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ » أى إياه و(الوجه) يعبر به عن الذات كماقال[1] « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » وفى قوله تعالى (هَالِكٌ) وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالا . والمراد بالمعدوم ماليس له وجود ذاتىّ. لأن وجودغيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل للعدم. وعن مجاهد والثورىّ (إلا وجهه) أى ماأريد به وجهه. حكاه[2] البخارىّ فى (صحيحه).

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦و٢٧] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢٨ ـ سورة القصص .

قال ابن جرير[1] : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفرُ الله ذنباً ، لست مُحْصِيَهُ رَبُّ العبادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهـذا القول لاينافى القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ماأريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .

وفيـه بُعد وتـكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآى التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التى ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لاتحتمل ذاك المعنى ، فـكذا هذه « لَهُ ٱلْحُـكْمُ » أى القضاء النافذ فى الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزيكم بأعمالـكم ، إن خيرا فخير وإن شرّا فشر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين (طبعة الحلبى الثانية)